غارسيا ماركيز:
أكتب كي لا أموت

يلوّح لنا أكثر كتّاب الأميركيتين شهرة، ويدعونا إلى دخول الأستوديو الخاص به، المستقل عن بيت جميل كولونيالي الطراز من طابقين، يتم الوصول إليه عبر فناء داخلي تكسوه الأعشاب. وما إن نصبح في الداخل حتى يرحب بنا بحرارة، يعرض علينا قهوة، ويتعذر عن إجراء مقابلة رسمية. يقول:

«سيقتلني جميع من رفضت طلباتهم من قبل».

كانت الأنباء قد رددت اسم غبرييل غارسيا ماركيز بكثرة في الآونة الأخيرة، بعد نشر الجزء الأول من مذكراته المعنون باسم «عشت لأروي». وقد بدأ الروائي الكولومبي الحائز على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٨٢، كتابة ذكرياته في العام ١٩٩٩ بعد تشخيص يرجح أن يكون مصابا بسرطان الغدد اللمفاوية، وفرغ من كتابة المخطوطة الواقعة في ٥٧٩ صفحة بعد ثلاث سنوات فقط. ومنذ ظهورها في السوق، باعت الطبعة الأسبانية ما يزيد على مليوني نسخة (ما عدا الطبعات المزوّرة).

كان غابو ـ وهذا هو الاسم الذي يُنادى به على سبيل التحبب ـ خلال فترة طويلة من حياته شخصية عامة، يحاضر، يقدم قراءات، ويجري مقابلات، ويدلي بآراء ينتظرها الناس بشوق حول قضايا أخلاقية مهمة.

وفي السنوات الأخيرة، فقط، عاش حياة تتسم بميل أكبر إلى العزلة، كرّس فيها كل وقته وطاقته لكتابة ذكرياته الواقعة في ثلاثة مجلدات. وفي هذه الأيام، في بيته الواقع في ضاحية سان انجيل في مكسيكو سيتي، يلتزم غابو بنظام صارم، فيكتب لمدة ست ساعات يوميا. ورغم هذا الانضباط، قبل بلطف

بعد قضاء إجازة في هافانا، أن يخصص لنا بعض وقته. لم تكن مقابلة بالمعنى الكامل للكلمة، ولكن عندما قمنا، أنا وابني جويل، بتصويره خلال يوم من أيام العمل العادية، استمعنا إلى تعليقاته حول موضوعات كثيرة.

عاد، بعد الترحيب بنا، إلى مكتبه حيث يطل عبر شاشة الماكنتوش أحدث ما كتب من كلمات، شرح لنا أن الكمبيوتر موصول بأجهزة كمبيوتر أخرى في البيوت الكثيرة التي يقطنها، ليتسنى له العمل بلا مشاكل بصرف النظر عن المكان.

وعندما شرع جويل في التقاط صور عن قرب، قلت لغابو إن صديقه القديم توماس ايلوي مارتينيز اقترح علينا قبل سنوات عمل مقالة مصوّرة عنه من نوع «يوم في حياة غابو». قال:

«آه، إيلوي، عندما صدرت «مائة عام من العزلة» في بونيس آيريس، استضافني في برنامجه التلفزيوني، كما وضع صورتي على غلاف ملحق أدبي كان يقوم بتحريره آنذاك، ومع ذلك لن تطلب مني أن أقف للتصوير تحت الدوش، أليس كذلك؟» سأل ذلك وشبح ابتسامة شيطانية يرتسم على شفتيه.

بعدها، شرع في استعراض برنامجه في الأيام العادية: الاستيقاظ في الخامسة صباحا، قراءة الكتب، والجرائد، والرد على البريد حتى الساعة السابعة صباحا، الاستحمام والإفطار، ثم التوجه إلى العمل في التاسعة، والكتابة لمدة ست ساعات على الأقل، حتى العصر. «عندما لا أكتب ينتابني الملل».

وعندما قال جويل إنه يعمل عموما في السينما والتلفزيون، رد غابو قائلا: إن أحد أبنائه، رودريغو، يشتغل في المجال نفسه: «درس في هارفارد، ثم في المعهد الأميركي للأفلام في لوس انجيلوس، ويقوم بعمل مسلسلات تلفزيونية، وأحدث ما قام به إخراج فيلمه الروائي الأوّل».

وقد كانت كلفة الفيلم، الذي يحمل اسم «ما يمكن أن تقوله عنها بمجرد النظر إليها» لا تزيد على مليوني دولار، ونال استحسان النقّاد. أما الابن الثاني المدعو غونزالو فيشتغل مصمما، ويعيش في مكسيكو سيتي.

لاحظ غابو، الحاضر أبدا، عندما التقطت صورا عن قرب أن الكاميرا التي استخدمها ليست في حالة جيدة. وأجاب بعد تغيير الموضوع والسؤال عن وضعه الصحي «ما زلت أذهب إلى لوس انجيلوس للقيام بفحوصات دورية، وأشعر أنني في حالة جيدة». سكرتيرته الخاصة أكدت وضعه الصحي الجيد، وبدا فعلا في حالة جيدة. وعند السؤال عن تمريناته الرياضية قال: «ألعب كرة المضرب مع مدربي، ولا يحصل على راتبه إذا لم أفز في اللعب».

كان الجو عابسا، ودرجة الحرارة منخفضة بالمقاييس المحلية، وكان غابو الحريص، دائما، على مظهره الخارجي، يرتدي قميصا ثقيلا من الصوف فوق قميص الشغل، كما كان يرتدي بنطالا يبعث الدفء، وينتعل جزمة انكليزية.

«وكيف كانت كوبا؟ هل التقيت بفيدل [كاسترو]؟»

«طبعا، كما حضرت احتفالا في معهد للسينما أقوم برعايته، يبعد المعهد خمسة كيلومترات عن

هافانا، ويقدم خبرات عملية للمتدربين، أزور المعهد مرتين في العام، وأجمع المال لدعم المدرسة من مصادر مختلفة في العالم».

وعندما تلقى غابو مكالمة هاتفية، طفت في الحجرة للاطلاع على البيئة المحيطة، خاصة على مكتبته الشخصية، التي تغطي رفوفها جدارين على جانبي الحجرة. كانت الكتب مرتبة أبجديا، تفصل بين أقسامها قواطع ملوّنة. على أحد الأرفف خلفه مباشرة توجد مؤلفاته المجلدّة بالأحمر، والأسود، والذهبي.

«سيأتي المزيد، لم أنته بعد». قال ذلك كملاحظة جانبية عندما لاحظ اهتمامي بالكتب. كانت معظم الكتب باللغة الإنكليزية، وكثير منها لغراهام غرين، ويوجين أونيل، وفرانتز كافكا، لكن عددا كاملا من الأرفف كان مكرّسا لهيمنغواي ووليم فولكنر، كاتبان أثارا إعجابه أكثر من الآخرين. وقد تأكدت مكانة الكاتبين بصورة إضافية من خلال صورة صغيرة مؤطرة لكل منهما على خوان جانبي، وهما الشخصيتان الأدبيتان الوحيدتان المحتفى بهما في تلك الحجرة. وُضعت الصورتان إلى جانب صورتين لغارسيا ماركيز في حفل تسلّم جائزة نوبل للآداب في ستوكهولم. وعلى الجدار المقابل صورة مؤرخة في ٢١ أكتوبر ١٩٨٢، يوم تلقى غابو مكالمة من السويد حول فوزه بالجائزة، ويظهر في الصورة محتفلا مع اثنين من أصدقائه المقربين. وما عدا تمثالين فضيين على أحد الأرفف يمثلان جائزتين لكتابة السيناريو، من الأكاديمية المكسيكية للفنون السينمائية (وهي تعادل جائزة الأوسكار في المكسيك) لا وجود للجوائز، والشهادات الفخرية الكثيرة التي نالها غابو.

ورغم أن غارسيا ماركيز يحب التنظيم والانضباط في حياته، إلا أنه يبدو مرتاحا للعمل بطريقة تشوبها الفوضى. ربما جاء هذا الميل من سنوات عمله الكثيرة في الصحافة، أو كما يحب القول: «كصحافي يكتب روايات على هامش المهنة».

كانت موسيقى شعبية من الكاريبي تصدح خلال زيارتنا. وقد رن جرس الهاتف مرّات عديدة، وغالبا ما كانت مونيكا تقوم بمقاطعته من مكانها في الطرف القصي لغرفة المكتب، للكلام عن شؤون العمل، أو عن ارتباطات قادمة. وفي أحد المرّات نظر في حزمة ضخمة من العقود، التي أعدتها وكيلته الأدبية في برشلونه، ووثائق للترخيص بنشر أعماله بالبرتغالية، والتشيكية، والصينية. وقد عقّب بطريقة فلسفية خلال توقيع العقود قائلا إنه لن يحصل على الكثير من العائدات، خاصة في الصين، التي تكثر فيها النسخ المزوّرة. مشكلة النسخ المزوّرة ألحقت الضرر بمذكراته المنشورة. ففي بورتوريكو ظهرت نسخة مزوّرة في السوق السوداء حتى قبل ظهور النسخة الأصلية المرخصة.

وبالنظر إلى المدى الواسع لمشروعه الحالي، سألت غابو ما إذا كان قد استعان بمساعدين لجمع معلومات عن العدد الهائل من الأحداث الواردة في مذكراته. وبينما كانت مونيكا تهز رأسها من جهة إلى أخرى، قال: «ما عدا التحقق من بعض الأشياء مع أفراد العائلة، والأصدقاء القدامى، اعتمدت على الذاكرة فقط». ضربت مونيكا بيدها على جبهتها: «إنه يحتفظ بكل شيء هنا، لديه ذاكرة هائلة». ابتسم غابو - وعلى غرار زميله البرتغالي الفائز بجائزة نوبل، خوزيه ساراماغو، الذي قال ذات يوم: «نحن ذكرياتنا» -

قال: «إذا لم استطع تذكّر حادثة ما، ذلك يعني أنها لم تقع».

تشكل الذاكرة كل شيء بالنسبة لغابو الكاتب. «كنت مدخنا شرها لمدة ثلاثين عاما، وفي سن الخمسين توقفت فجأة بعدما أخبرني طبيب في برشلونة أن عادة التدخين تسبب فقدان الذاكرة». وقد حاول أحد الناشرين وضع صورة قديمة لي على الغلاف الخارجي لكتاب المذكرات، أبدو فيها جالسا، أمامي الآلة الكاتبة، وسيجارة تتدلى من فمي، رفضت الفكرة، وبدلا منها اخترت صورة لي في الثانية من العمر التقطها مصوّر جوّال، عاد والتقط صورا لي في سن الثالثة، والرابعة، وما زلت احتفظ بالصور الثلاث.

غابو مسرور نتيجة الحماسة التي استقبل بها الجزء الأوّل من المذكرات، ومع ذلك يقول بنوع من التواضع، أو ربما ما ينتاب الكتّاب من شك، حتى الكبار منهم: «أرجو تحقيق الجودة نفسها في المجلدين الباقيين». وقد أثنى كثيرا على مترجمته إلى اللغة الإنكليزية، إيديث غروسمان: « ممتازة إلى حد أننا نحتاج إلى فحص بعض التفاصيل الصغيرة فقط».

وبينما كنت أخربش هذه الكلمات، وغيرها، في دفتر ملاحظات صغير، ذكرني غابو أن مقابلتنا ليست رسمية، وعندما قلت إنني أدوّن عبارات تكمّل الصور، ابتسم وهز رأسه بطريقة ودية. بدلا من الكتابة انسحبت إلى الحديقة لالتقاط صور لغابو خلف مكتبه من خلال النافذة، وما إن عدت حتى سمعته يسأل جويل: «وماذا بعد؟». أجاب جويل: «ما رأيك بصورة مع كارليتوس؟».

«كيف عرفت؟»، سأل غارسيا ماركيز بدهشة مصطنعة.

«قالت مونيكا: إنك لديك ببغاء».

وهكذا، خرجنا إلى الحديقة، بينما جلبوا كارليتوس من المرآب، لأن الجو كان شديد البرودة في الخارج. دغدغ غابو ـ ومن الواضح أنه يحب الببغاء ـ الطائر بنظارته. «في السابعة والعشرين من العمر، ولم يتكلّم بعد، ويحب الكاميرا».

دلفنا، بعدئذ، إلى قاعة مكيّفة الهواء، نطل منها على الحديقة من خلال ثلاثة شبابيك زجاجية كبيرة الحجم. «هذه حجرتي المفضلة»، قال أثناء جلوسه على أريكة بيضاء. وقد عرضت عليه لقطات ملوّنة صورتها قبل سنوات، لجدارية تبلغ عشرين قدما، مستوحاة من مائة عام من العزلة.

نظر إلى التفاصيل باهتمام:

الكولونيل أورليانو بيوندا مقيد إلى شجرة، زوجته النحيلة أورسولا، تصعد مع الجميلة ريميديوس إلى السماء، ومكويداس يحضر الثلج إلى ماكوندو للمرّة الأولى. في أعلى الجدارية قرأ العبارة الأخيرة في الكتاب ذات الشهرة الفائقة (لم تحظ أجناس حكم عليها بمائة عام من العزلة بفرصة ثانية على الأرض).

«هل استطيع الاحتفاظ بالصور؟»، سأل.

«طبعا، هذا أقل ما يمكنني عمله.. لن تعرف أبدا قيمة كتبك في نظري، ومدى إعجابي بما فعلته في حياتك».

أجاب بصوت نحيل (وهي المرّة الوحيدة التي تكلم فيها بالإنكليزية): «كفى، أنت تدفعني إلى

البكاء».

كذلك، عرضنا عليه مقالة في الملحق الأدبي لجريدة ناسيون اليومية في بونيس آيريس، حول مذكراته. لم تكن لديه فكرة عن المقالة، وشرع في القراءة على الفور، مما أتاح لنا فرصة تصوير غابرييل قارئا المقالة التي صوّرت مونيكا نسخة عنها في وقت لاحق، للاحتفاظ بها في الأرشيف.

بعدئذ، وقع غابو عددا من الكتب التي احضرناها. وقّع لجويل كتاب «الحب في زمن الكوليرا»، ووقع لزوجتي على نسخة كتب عليها «وردة من أجل كلوديا» ورسم الوردة. وعلى نسخة تعود إلى الطبعة الأولى لرواية «مائة عام من العزلة» كتب: «إلى كاليب مع العرفان من ضحيته». وبينما كان يناولني الكتب، نظر باستغراب إلى شعري الأبيض ـ لم يزل شعر غابو، في السادسة والسبعين من العمر، أسود اللون مع وجود بعض البياض. قال: كم عمرك؟

وعندما أجبت أنا في الثالثة والستين، ناداني بالشاب، ثم قال بتنهيدة: «أشعر بالتعب، هذه هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بالتعب، ومع ذلك أستمر في الكتابة كي لا أموت».

حان وقت الرحيل. جمعنا أغراضنا، ومشى معنا غابو مودعا حتى الشارع، وقبل دخول البيت ذكّر جويل بضرورة الاتصال مع ناشره Knopf في نيويورك «اعرض عليهم صورك، ربما يستخدمونها لغرض الدعاية، عند صدور الطبعة الإنكليزية من المذكرات، قابل محرر كتبي، قل له إنك قادم من جهتي».

لا ينسى هذا الرجل الوقور، الذي أغنى حياة العديد من الناس، أصوله المتواضعة، ولا ينسى ما بذله من جهد لجعل حياته ذات معنى، كما أن من صفاته مساعدة الغير، خاصة الشباب وقد شرعوا في رحلتهم الخاصة.

كاليب باخ

مجلة americas حزيران ٢٠٠٣